## الخاتمة

وبعد فقد آن لنا أن نسجل فى هذه الخاتمة ما توصلنا إليه من نتائج :

١ — نشأت البلاغة العربية — كغيرها من العلوم — مسائل متفرقة فى كتب التفسير والأدب الأولى ، ثم أخذت تتطور على مر الأيام متأثرة بالثقافة الإسلامية العامة ، وقد أسهمت فى إرساء قواعدها فرق كثيرة كالأصوليين والمتكلمين والمفسرين والكتاب والشعراء واللغويين والنحاة والرواة .. وكان لكل طبقة من هؤلاء اتجاه فى بحث البلاغة ومعالجة فنونها ، فالمفسرون والأصوليون اتخذوها وسيلة لتفسير كتاب الله ، واستنباط الأحكام ، والنحاة واللغويون استعانوا بها فى كتبهم حينما كانوا يقفون على الشواهد موضحين أساليبها ومفسرين معانيها ، والشعراء والكتاب اتخذوها أساسا فى دراسة الأدب ونقده ، والفلاسفة والمتكلمون استفادوا منها فى مباحثهم ومناقشاتهم .

٢ — اختلفت مناهج البحث فى البلاغة العربية وتعددت الكتب وتنوعت الدراسات ، حتى أصبح لدينا مدرستان بلاغيتان :

الأولى : المدرسة الكلامية أو مدرسة الفلاسفة والعجم ، شاعت فى المشرق الأقصى ( إيران وخوارزم وما جاورهما ) .. ومن سمات درسها البلاغى — فى أغلبه — الاعتماد على العقل ، وتحكيم المنطق ، وكثرة التقسيمات ، وقلة الشواهد الأدبية .

الثانية : المدرسة الأدبية ، أو مدرسة العرب البلغاء ، وقد شاعت هذه المدرسة فى العراق والشام ومصر ، ومن سمات درسها البلاغى — فى أغلبه — الاعتماد على الذوق وتحكيمه فى الأعمال الأدبية ، والبعد عن تمحلات الفلسفة والمنطق ، والإكثار من الشواهد الأدبية .

٣ — لم تسلم كلتا المدرستين من تأثر كل منهما بالاخرى فى بعض السمات فلم تخل من مؤلفات الكلاميين من مواطن آثرت الذوق والتحليل الفنى ، كذلك

لم تخل من مؤلفات الأدباء من بعض مواطن اصطبغت بروح الفلسفة والمنطق ولم تخل مؤلفاتهم من بعض الأمثلة التعليمية ، وبخاصة فى علم المعانى ، وهل التداخل راجع إلى أصل اقتباسهم الأول وهو القرآن الكريم ثم نظر السابق فى مؤلفات اللاحق والتأثر بما جاء فيها وتلك مسألة طبيعية .

٤ — ظهر منذ القرن السادس وما بعده ثلاثة اتجاهات واضحة .

الأول : اتجاه المشارقة الذين جنحوا إلى تحكيم العقل فى البلاغة قبل تحكيم الذوق الأدبى .. ويمثل هذا الاتجاه أهل المدرسة المشرقية كالرازى والمطرزى والسكاكى وغيرهم .

الثانى : اتجاه المغاربة ومنهم من جنحوا إلى بلاغة أرسطو وراحوا يقتبسون من كتابيه ( الخطابة والشعر ) آراءه البلاغية والنقدية ، ويمثل هذا الاتجاه حازم القرطاجنى فى كتابه ( منهاج البلغاء ) ومحمد بن أحمد الاندلسى فى كتابه " المعيار فى نقد الأشعار " .

الثالث : اتجاه مصر والشام والعراق ، وهو الاتجاه العربى الذى ينحو منحى أدبيا فأهل هذه البلاد يميلون إلى تحكيم الذوق والاهتمام بصور البديع ، وما توحيه من انفعالات نفسية تتعلق بالإحساس الفنى والوجدان ، وقد بدا هذا الاتجاه واضحا منذ ابن سنان الخفاجى صاحب "سر الفصاحة " وجاء من بعده بلاغيون ونقاد كبار على رأسهم ضياء الدين بن الأثير صاحب " المثل السائر " و " الجامع الكبير " وكان لمؤلفاته وآرائه دوى فى مجالس العلم والأدب ، وجاء من بعده أسامة بن منقذ صاحب كتاب " البديع فى نقد الشعر " الذى تميز بأسلوبه الأدبى واهتم بألوان البديع ، ثم جاء ابن أبى الاصبع المصرى الذى عنى عناية فائقة بالبديع وخاطا به خطوات واسعة حتى وصل بأنواعه إلى ما يزيد على مائة وعشرين نوعا مع عنايته الشديدة بالشواهد الموروثة وتحليلها تحليلا أدبيا ، ودراستها دراسة تطبيقية تعتمد على الذوق والحس ولا ننسى عنايته الخاصة

بدراسة القرآن فألف " بديع القرآن " كشف فيه عن الألوان البلاغية ليبين إعجازه وألف " الخواطر السوانح "للكشف عن الأسرار الخفية فى فواتح السور المعجمة والمعربة وله كتاب " تحرير التحبير " فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن وهو كتاب ضخم أحصى فيه الفنون البلاغية واهتم بدراسة البديع ٠

٥ — وكانت مصر والشام أيام الأيوبيين والمماليك تمثلان بيئة ثقافية واحدة فكان الشعراء والأدباء فى القطرين مولعين بألوان البديع وخصوصا التورية والجناس والقوافى المتمكنة ، وثمة ظاهرة أخرى برزت فى اتجاهاتهم النقدية تلك هى غرامهم بالسرقات الشعرية ، ومنها التضمين والأقتباس وطرق الاستعانة بأساليب السابقين فى النظم والكتابة ، كابن شيث القرشى وابن الأثير وابن أبى الأصبع وابن حجة الحموى ٠

٦ — وكانت الألوان البديعية الشغل الشاغل للشعراء والكتاب فى هاتين البيئتين — زمن الأيوبيين والمماليك — فهى مقياس الجودة والحسن ومرضاة الذوق لهذا العهد ، وقد كانت مدرسة القاضى الفاضل ومن حذوا حذوه يمثلون هذا الاتجاه ٠

٧ — ولم يبق اتجاه مصر والشام خالصا للفن والأدب فقد غزا "مفتاح العلوم " هذه البيئة فى النصف الثانى من القرن السابع ، فأخذت مدرسة السكاكى الكلامية تغزو مجالس الدرس ، ومعاهد العلم ، وأخذت الكتب تؤلف على غراره ، وكان ممن اهتموا بهذا الاتجاه جلال الدين القزوينى الذى اختصر القسم الثالث من مفتاح العلوم فى كتاب سماه " تلخيص المفتاح " واشتهر باسم " التلخيص " وأغرم به العلماء فانكبوا عليه يشرحونه وينظمونه ويضعون عليه التقارير والحواشى وهذه سمة من سمات التأليف فى ذلك الوقت ٠

٨ — نشأ السبكى فى عهد — دولة المماليك البحرية — وكانت حالة مصر السياسية غير مستقرة وكذلك الحياة الاجتماعية بسبب الفتن والحروب ٠ أما الحالة

الثقافية فقد كانت مزدهرة بسبب تشجيع الحكام للعلماء والاهتمام ببناء المدارس ودور التعليم ، والإنفاق بسخاء على العلماء وطلاب العلم .

٩ — كانت ثقافة مصر في هذه الفترة ثقافة إسلامية خالصة ، تتكون من عدة عناصر ( النحو والقراءات والحديث وعلوم القرآن والأدب والفلسفة ) وكانت الأخيرة شبه معدومة ، لأن الحكام كانوا يرون خطرها على الناحية الدينية والسياسية معا ، فكانوا يكرهون الفلاسفة ، ويعاملونهم بعنف .. وكان النحو والبلاغة من أخطر العناصر التي تتكون منها الثقافة في ذلك الوقت ، فلم نر عالما ولا فقيها ولا محدثا إلا كان له إلمام واسع بهذين العلمين .

١٠ — تكونت ثقافة السبكي من هذه الثقافة الاسلامية التي سادت عصره بما فيها من كتب إسلامية وأدبية وبلاغية ونحوية وفلسفية فكان عالما موسوعيا أخذ من كل علم بطرف واستعان بهذه الثقافة في الكتابة والتأليف ، فانعكست هذه الثقافة الموسوعية على كتبه وخصوصا كتاب " عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح " .

١١ — كانت طريقة السبكي في شرحه أن يعرض لنص التلخيص عبارة عبارة وهذه العبارة قد تطول أو تقصر حسب وضوحها أو ما تحتاج اليه من شرح أو توجيه .

١٢ — يتفق السبكي مع عبد القاهر في معنى النظم ( ١/ ٥٣ ) وفي صلة الفصاحة بالبلاغة ( ١/ ١٤٣ — ١٦٠ ) وتكلم عن البراعة التي أهملها الجمهور والقزويني ونلمح آثار ثقافة السبكي في شرحه وفي بعض التقسيمات البلاغية ، وأثر الناحية الشرعية في كتابته .

١٣ — في علم المعاني : تتسع نظرة السبكي البلاغية معتمدة على النقد الذوقي والموضوعي ، ويظهر ذلك في :

أ ) مناقشاته للعلماء واختياره للأقوال .

ب ) موازنته بين آراء البلاغيين والترجيح بينها ورد بعضها ونقد بعضها ، ولهذا كان للمنطق أثر في ذلك .

١٥ - وفى علم البديع :

أ ) تبرز ملكة السبكى النقدية إذ لا يرى المجال فى علم البديع حسنا عرضيا بل حسنا ذاتيا (٤/٢٨٣) وله توجيهات نقدية فى ألوان البديع تشهد بدقة الملاحظة واستفادته من علماء البديع كابن أبى الاصبع المصرى الذى اتخذه إماما فى البديع .

جـ ) أضاف السبكى أنواعا كثيرة إلى البديع غير ما ذكره القزوينى كالتوقيف والتسميط والتغاير والقسم والسلب والايجاب ... الخ (٤/٤٦٧ - ٤٧٤) .

١٦ - منهج السبكى فى شكله العام كمنهج القزوينى تلميذ السكاكى من حيث تقسيم البلاغة الى معان وبيان وبديع الا أن السبكى لا يرى فصلا بين علومها الثلاثة ويقرر أن الصلة قائمة بين العلوم الثلاثة وبين البلاغة وعلوم العربية ، ويعتبر أن مطابقة الحال لا يختص بها علم المعانى دون علمى البيان والبديع ، والبديع عنده من البلاغة وليس تابعا لها كما هو عند السكاكى والقزوينى .

١٧ - ويعد منهج السبكى منهجا نقديا الى حد كبير لأنه أكثر من النظر والمناقشات وابداء الرأى كما تناول فن السرقات الشعرية وهى جانب من الدراسات النقدية .

١٨ - لم يكن السبكى مقلدا وانما كان متحررا إلى حد ما فلم يأخذ كله ولم يدع كله ، بل محّص واختار ما يتفق وذوقه البلاغى .

١٩ - يمكن أن نجمل جهود السبكى البلاغية فى النقاط الآتية :

١ - استجلاء كثير من المسائل الغامضة فى التلخيص واظهار غرض المؤلف منها .

٢ - العناية برد الأقوال الى أصحابها ، وتحقيق الروايات الشعرية ما أمكن

٣ - الاكثار فى شرحه من الشواهد الادبية وبخاصة القرآنية التى تنم عن صلته القوية بالقرآن الكريم .

٤ — ربط البلاغة بعلوم اللغة والنحو والأصول ، وجعلها فى خدمة القرآن الكريم .

٥ — استخدام الفلسفة والمنطق — دون اقحام لأصولها المجردة — بقدر ما يخدم الغرض ويوضح المقصود .

٦ — تحليل الشواهد والأمثلة تحليلا أدبيا ونقدها نقدا توجيهيا ، مع الاهتمام بالاثر النفسى للأساليب .

٧ — ذكر كثير من الفوائد والتنبيهات التى تثرى الدرس البلاغى بما اشتملت عليه من قواعد مهمة فى علوم العربية ، وهى — فى الوقت نفسه — تكشف عن آرئه البلاغية والنقدية .

٨ — إتيانه ببعض النحوية والأصولية والأدبية التى دعت إليها المناسبة ورأى أنها تفيد فى تحقيق بعض المسائل البلاغية وتحريرها تحريرا دقيقا .

٩ — استدراك كثير من المسائل البلاغية على صاحب التلخيص رغم أن معظمها كان شائعا عند من قبله .

١٠ — اعتمد فى تناوله الدرس البلاغى على :

أ ) ذوقه الأدبى الذى اكتسبه من بيئة مصر .

ب ) الثقافة الموسوعية وخاصة النحو الذى كان من أخطر عناصر الثقافة فى عصره .

٢٠ — اتجاه السبكى البلاغى اتجاه جمع بين اتجاهين كبيرين ( الادبى الكلامى ) لأنه أخذ من مؤلفات البلاغيين السابقين عليه من أصحاب المدرسة الكلامية وأصحاب المدرسة الأدبية وامتزج ذلك عنده بالفكر المصرى والذوق المصرى فى البيئة المصرية فنتج لنا اتجاه جديد يصح أن نطلق عليه الاتجاه المصرى فى البلاغة العربية أو هو يمثل فى نظرنا اتجاه مصر البلاغى فى القرن الثامن الهجرى لذلك جاء كتابه مزيجا لبقا وخلاصة صافية لكتبهم ومؤلفاتهم .

٢١ — للسبكى مقاييسه البلاغية والنقدية التى تمثلت فى آرائه وتنبيهاته ومن هذه المقاييس المقياس اللغوى والمقياس النحوى والمقياس الذوقى الفنى ، هذه المقاييس أدوات السبكى فى الكشف عن صحة الأساليب وبلاغة التراكيب إذ يجعل اللغة والنحو مقياسا لصحة التركيب ودقة اللفظ ، ويجعل " الذوق " مقياسا لإدراك الجودة والحسن فيما يحلل من نصوص ، وفيما يتعرض له من موازنة بين الأساليب .

٢٢ — إذا كان السبكى قد تأثر ببعض جهود سابقيه ، فهذا لا ينفى عنصر الأصالة عنده ، فقد نجح فى التوفيق بين النقد الأدبى الذوقى ، والمنهج الفلسفى العلمى ، وذلك باستثارة " الذوق " الى إدراك الجمال فى النصوص الأدبية التى تعرض له .

٢٣ — يحسب للسبكى ما حقق من مسائل بلاغية ، كالفرق بين الحصر والاختصاص والفرق بين الالتفات والتجريد والفرق بين المجاز والكناية وغير ذلك من استدراكات استدركها على المصنف .

والكتاب فى جملة الأمر خلاصة وافية من الأبحاث البلاغية الجيدة ، ومزيج لبق من الأبحاث الفلسفية الكلامية والابحاث الأدبية الذوقية والروح الفنية الصادقة ويتضح هذا من مصادر بحثه التى ذكرناها ، فقد رجع الى أمهات الكتب التى تيسرت له فى عصره وجمع منها مادة كتابه ، وذلك كله مع ظهور شخصيته وتجليها فى البحث والتحقيق ، وما أبداه من آراء بلاغية ونقدية مستندا الى ما لديه من مقاييس لغوية أو نحوية أو عقلية أو ذوقية .. وقد ذكر من مصادره كتبا أدبية منها النادر الآن ، ومنها المفقود الذى لم نره ، ككتاب المعيار للزنجانى وقوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادى ومواد البيان لأبى الحسن بن خلف الكاتب ، والطريق الى الفصاحة لابن النفيس مما يقوى النزوع الادبى فى الكتاب ، بكل ذلك امتاز كتاب عروس الأفراح عن غيره من كتب البلاغة الكلامية المحضة ، كما امتاز ببسطة القلم وطول النفس الذى يعوز كتب ذلك العصر ، لذلك فقارئه لا يجد فيه كثيرا من العسر والمشقة مثل ما يجد فى كتب الشروح الأخرى التى تشغل الباحث عن روح المادة

وتضييع الوقت فى حل رموزها ٠٠ والكتاب بهذه الصورة يعكس لنا صورة الـــــــدرس البلاغى فى مصر فى القرن الثامن الهجرى ويظهر لنا جهود السبكى البلاغية وآراءه البلاغية والنقدية ، ويمهد لنا السبيل لدراسة البلاغة دراسة تعتمد على الـــــذوق وتقوم على أسس صحيحة من المقاييس الفنية ٠